صفحة من تاريخ افغانستان المعاصر

لمناسبة حوادثها الاخيرة

للاستاذ محمد عبد الله عنان

في الثامن من نوفمبر الماضي سقط نادر شاه ملك أفغانستان السابق قتيلا برصاص طالب أفغاني في احدى حدائق كابول اثناء حفلة رياضية كان يشهدها الملك القتيل ، فخسرت أفغانستان بذهابه أميرا قويا حازما لبث مدى أربعة أعوام يشرف على مضايرها ويعمل لتنظيم شئونها وتوطيد سلامها في ظروف عصيبة . وكانت أفغانستان قبل ان يتبوأ عرشها نادر خان قد اضطرمت باحدى هذه الثورات القومية التي يتميز بها تاريخها منذ اواخر القرن الماضي ، والتي تدفع بها دائما الى فترة من الفوضى الخطرة ، وتجعل من عرشها مثار معارك طاحنة بين الزعماء والمتغلبين ، ومن استقلالها هدفا تعمل السياسة الاجنبية ما استطاعت للنيل منه ؛ وكان عرشها بعد أن غادره الملك السابق أمان الله في صيف سنة ١٩٢٩ فرارا من نقمة شعبه قد تداوله اثنان في بضعة أشهر ، أولهما عناية الله أخو أمان الله الأكبر ، والثاني حبيب الله أو باشا سقا الزعيم الثائر ؛ وكانت أفغانستان تمزقها الحرب الاهلية حينما جاء اليها نادر خان وزير الحربية السابق في أواخر سنة ١٩٢٩ من مقامه في أوربا ، وانتزع كابول من يد الثائر وقبض عليه وأعدمه ، ثم نادى بنفسه ملكا ، واستطاع في أشهر قلائل أن يقمع الفوضى وأن يعيد الى أفغانستان نوعا من السكينة والاستقرار .

ولم يكن مقتل نادر شاه (نادر خان) مفاجأة ولا حادثا غير عادي في تاريخ أفغانستان الحديث ؛ فعرش أفغانستان يرتجف دائما فوق بركان من الدسائس الدموية ؛ وقد قتل في الفترة الأخيرة من ملوك أفغانستان عدة ، أولهم حبيب الله خان الذي قتل سنة ١٩١٩ . ولو لم يبادر الملك السابق أمان الله بالفرار لكان نصيبه هذا المصير الدموي . بيد أن هذا العرش الخطر مافتىء يغري زعماء القبائل والاسر الأفغانية ؛ ونخشى أن تعود هذه المعركة الخالدة على العرش فتضطرم غير بعيد في أفغانستان ، وان كان الامير الفتى ظاهر شاه ولد نادر شاه قد جلس على العرش غداة مقتل أبيه ، واتخذت في الحال كل أهبة لاخماد كل نزعة للخروج والثورة . فقد كان نادر شاه يحكم أفغانستان مدى الأعوام الاربعة الماضية بقوة وذكاء ، ولكنه لم يستطع رغم عزمه وحزمه أن يخمد كل عوامل الانتقاض والفوضى التي تضطرم بها أفغانستان منذ أواخر عهد الملك أمان الله ؛ وقد نشبت في عهده غير ثورة أخمدت دائما في سيل من الدماء ، ومازال الملك السابق أمان الله يتربص فرص العودة الى عرشه ، وما زالت تؤازره في أفغانستان بقية من أنصاره . هذا الى أن القبائل الافغانية القوية في الشرق والشمال الشرقي مازالت تعيش في نوع من الاستقلال الاقطاعي ، وتتردد بين تأييد العرش والخروج عليه حسبما تملي عليها مصالحها أو حسبما توجهها المؤثرات الاجنبية في كثير من الاحيان .

والحقيقة أن أفغانستان تجد نفسها منذ نحو قرن في مركز حربي وسياسي يكاد يحرم عليها الحياة الهادئة . فهي تقع بين الهند البريطانية من الشرق ، وبين التركستان الروسية من الشمال ، وتكون بذلك ملتقى الجذب بين سياستين استعماريتين قويتين تتنازعان السيادة والنفوذ في أواسط آسيا ، وتلتقيان دائما في ذلك الاقليم الجبلي الوعر ، الذي يحد نفوذهما ويفصل بين أراضيهما ؛ اعني أفغانستان . والشعب الافغاني لايتجاوز أربعة ملايين جلهم من القبائل الجبلية ، ولكنه شعب قوي بخلاله الطبيعية

يوم كنت بيضة ، وكيف تطورت جنينا ، وكيف نبض قلبك لاول مرة ، وكيف خرجت الى هذا الوجود ، وكيف تموت ولم خرجت ، ولم تموت ؟ . لو أفصحت لنا عن كل هذه الاسرار لكشفت سر الوجود ، ولما كان هناك مجال لفلسفة ولا لحكمة ولكنك أعجزت الفلاسفة ، اذ كتمت سرك بين جناحيك فهامت الفلاسفة على وجوهها ، وارتبكت في تفكيرها .

إذن فيك أيها الصندوق الصغير ، كل ما في العالم الكبير ، من معاني الحياة وغوامضها وأسرارها ، وفيك كل مظاهر الانسان على تبجحه وغروره — وفيك ماحير العقول قرونا ، وأجهد الفكر أجيالا — وهل العالم الا لغز ، لو حل جزؤه لحل كله .

أحمد أمين

ونزعته العسكرية يعتصم دائما بهضابه الوعرة ، ويحرص على استقلاله أيما حرص . واذا كان تجاذب السياستين البريطانية والروسية يعرض افغانستان بين آن وآخر الى تيار النفوذ الأجنبي ، فان أفغانستان من جهة أخرى تتخذ من هذا التجاذب أداة لتدعيم استقلالها ، وتجعل منه دائماً وسيلة لاقامة التوازن بين السياستين المتنافستين . بيد أن السياسة البريطانية التي تقدر أهمية افغانستان في حماية حدود الهند الشمالية الغربية من الغزو الروسي ، تحرص دائما على أن تكون راجحة النفوذ والكلمة ، ولا تتردد في تأييد هـذا التفوق في السهر على مصاير أفغانستان بالقوة القاهرة . وأفغانستان تعرف أنها لا تستطيع أن تتخلص من هذا النفوذ دون أن تعرض استقلالها للخطر ؛ وقد أنست هـذا الخطر في تاريخها الحديث غير مرة إذ غزتها الجيوش الانجليزية في سنة ١٨٣٨ ، ثم في سنة ١٨٧٨ ؛ وعرض استقلالها للضياع في المرتين . وما زالت السياسة البريطانية الى يومنا تقوم بدورها التاريخي في السهر على توجه شئون أفغانستان وتطوراتها .

ونستطيع ان نرجع من مرحلة التاريخ الافغاني المعاصر الى اواخر القرن الماضي ، أو الى عهد الامير عبد الرحمن خان الذي تولى العرش عقب تطورات الحرب الافغانية الانكليزية الثانية ، سنة ١٨٨٤ ؛ فقد استطاع هذا الامير القوي لاول مرة أن يحطم سلطة القبائل الاقطاعية ، وان يخضعها لصولة العرش ، واستطاع أن ينشيء لافغانستان جيشا نظاميا حسنا ، وان ينظم الضرائب والموارد العامة ؛ وتمتعت افغانستان في عهده بعهد طويل من السكينة والاستقرار في ظل ادارة قومية صارمة . ثم توفي عبد الرحمن سنة ١٩٠١ وخلفه على العرش ولده حبيب الله خان . واستطاعت السياسة البريطانية في تلك الفترة ان توطد نفوذها في افغانستان ؛ وكان حبيب الله برغم حرصه على استقلال افغانستان الداخلي ، يصانع السياسة البريطانية ويتقي اثارتها ما استطاع ؛ وفي عهده بلغ النفوذ البريطاني ذروته في توجيه سياسة افغانستان الخارجية ، ولاسيما في علاقتها مع روسيا القيصرية ، وتضاءل النفوذ الروسي الى أعظم حد . ولما نشبت الحرب الكبرى حافظ حبيب الله على صداقته مع بريطانيا العظمى ، وقاوم كل مسعى بذلته المانيا لتحريض افغانستان على نقض هذه الصداقة . ثم توفي قتيلا في أوائل سنة ١٩١٩ ، فخلفه اخوه نصر الله ؛ ولكن ثورة نشبت بقيادة امان الله ثالث اولاد حبيب الله انتهت بعزله . وتبوأ أمان الله العرش في ربيع هذا العام .

وهنا كان تطور حاسم في تيار النفوذ الخارجي ؛ وانتهزت روسيا السوفيتية هذه الفرصة لتسترد نفوذها الذاهب ، فعاونت امان الله على انتزاع العرش من عمه ، واستعملت كل وسيلة لمحاربة النفوذ الانكليزي والقضاء عليه ؛ وذهب امان الله في خصومته للانكليز الى حد أنه دفع بجنده الى اجتياز الحدود الهندية ، ولكن الانكليز ردوها في الحال وعبروا الحدود الافغانية الى « دكا » ، وأرغموا امان الله على عقد الصلح ، ولكن بشرط أن تعترف انكلترا باستقلال افغانستان (اغسطس سنة ١٩١٩) .

وكانت روسيا من وراء أمان الله تؤيده وتوجه خططه ؛ وكانت انكلترا من جانبها تقدر هذا العامل الجديد في تطور حوادث افغانستان ، وتتحاشى الاصطدام بروسيا السوفيتية ، وتعمل لاتقاء دسائسها ما استطاعت ، وأفغانستان من جانبها تجني ثمرة هذا النضال بين الدولتين الخصيمتين . بيد أن السياسة البريطانية لم تعدم وسيلة للاتفاق مع امان الله ؛ ففي سنة ١٩٢١ عقدت في كابول معاهدة انكليزية افغانية جديدة ، تعترف انكلترا فيها باستقلال افغانستان الخارجي والداخلي ؛ وتعترف افغانستان فيها بالحدود الهندية الافغانية القائمة ؛ وتنص على تبادل التمثيل السياسي والقنصلي ؛ وتخول لافغانستان الحق في ان تستورد من انكلترا ما يلزمها من الاسلحة والذخائر معفاة من الرسوم . وفي سنة ١٩٢٣ عقدت بين الدولتين معاهدة تجارية . ومع أن العلائق بين انكلترا وأفغانستان لبثت عادية ودية ، فان النفوذ الانكليزي لم يعد الى سابق تمكنه واستشاره ، واستمر النفوذ الروسي متفوقا في افغانستان مدى حين .

وقضت افغانستان فترة من الاستقرار والسكينة ، توطدت فيها شئونها الداخلية وعلاقتها الخارجية . وفي سنة ١٩٢٧ قرر الملك امان الله أن يقوم مع زوجته الملكة ثريا برحلة رسمية في بعض الدول الاوربية ؛ فغادرا أفغانستان في شتاء هذا العام ، ومرا في طريقهما بمصر ، ونزلا فيها بضعة أسابيع ، واستقبلا اينما حلا بمنتهى الاكرام والحفاوة ؛ ثم سافرا الى أوربا وزارا ايطاليا وفرنسا وانكلترا والمانيا ، وتسابقت الدول في الاحتفاء بهما واغداق الهدايا عليهما ، كما تسابقت في التقرب الى امان الله ومحاولة الحصول منه على بعض المزايا السياسية والتجارية ، ولكن امان الله لم يتورط في التعاقد واكتفى ببذل الوعود . ثم غادر المانيا الى روسيا ، واستقبله

حلفاؤه البلاشفة أعظم استقبال ، وعقدت اثناء مقامه بموسكو معاهدة افغانية روسية تجارية جديدة . وأبدى امان الله اثناء رحلته اهتماما عظيما بمظاهر الحضارة الغربية ، ولم يخف اثناء تجواله نيته فى الاقتباس منها لبلاده باعظم قدر ، والعمل على تجديد افغانستان ودفعها الى طريق الحضارة الغربية باسرع مايستطاع ، ولم تخف زوجته الملكة ثريا نيتها فى العمل على تعليم المرأة الافغانية وتحريرها ، وكان لهما فى ذلك تصريحات رنانة مازلنا نذكرها . واستمرت الصحف الاوربية مدى حين تفيض فى رحلة الملك الشرقى وفى اخباره وأعماله وأقواله ، وفى برنامجه الاصلاحى ، وفى أحوال أفغانستان وشئونها وأهميتها الحربية والسياسية . بيد أنه لوحظ منذ قصد أمان الله الى موسكو فتور الصحافة الغربية فى الحديث عنه ، ولوحظ بنوع خاص أن الصحف البريطانية أخذت تحمل على سياسته ، وتنتقد زيارته لموسكو وتورطه فى محالفة البلاشفة . ولم يكن حديث الصحف البريطانية عبثا ، وانما كان بدلالة اتجاه جديد فى السياسة البريطانية كما سنرى .

عاد امان الله الى افغانستان بعد أن زار تركيا وفارس ، وعقد مع كل منهما معاهدة صداقة ، وتأثر ايما تأثر بما رأى فى تركيا من مظاهر التجديد الاوربى . ولم يضع وقتا فى تنفيذ برنامجه الاصلاحى : وكان برنامجا شاملا تناول نظم الحكم ، كما تناول كل نواحى الحياة القومية . فاما فى نظم الحكم فقد ألغى أمان مجلس الحكم القديم الذى يضم زعماء الدين ومشايخ القبائل بمجلس تمثيلى يؤلف بالانتخاب ، وأدخل نظام الوزارة الحديث ، والغى سلطات الاشراف وزعماء الدين ، وفرض الضرائب العامة المنظمة والخدمة العسكرية الاجبارية على كل أفغانى . وكان أمان الله فى الناحية الاجتماعية أشد جرأة واندفاعا وقد خيل له أنه يستطيع بقوة التشريع العاجل أن يخلق من افغانستان العصور الوسطى ، أمة جديدة تتمتع بمظاهر التمدن الحديث . وكانت زوجه الملكة ثريا ، وهى امرأة سورية لاتفهم روح الشعب الذى رفعت الى عرشه ، تدفعه فى ذلك الطريق بعنف ، فاصدر طائفة من القوانين الاجتماعية الجديدة ترمى الى تحرير المرأة وسفورها ، والغاء تعدد الزوجات ، ورفع سن الزواج ، والزام الافغانيين بلبس القبعة والثياب الاوربية على نحو مافعل مصطفى كمال بالترك ، وأرسل الى أوربا بعوثا من الشبان والفتيات ليتعلموا فى معاهدها . وكان الشعب الافغانى يشهد هذا الانقلاب فى دهشة وروعة ولا يكاد يصدق أنه المقصود بهذه الاجراءات ، وفى افغانستان أمة قديمة تغلب فيها البداوة ، ولم تخرج بعد من غمر القرون الوسطى ، وللتقاليد الدينية والاجتماعية فيها ايما هيبة ورسوخ ، فوقعت هذه السياسة الجريئة فى الشعب الافغانى وقع الصاعقة ، وثار سخطه لهذا الاجتراء على تقاليد القرون ، وقابل زعماء الدين والقبائل تلك المحاولة لسحق سلطانهم القديم بمنتهى الانكار والمقاومة ، ولم تمض أشهر قلائل حتى سرى ضرام الثورة الى ذلك الشعب المضطرم المتأهب ابداً للثورة وتحطيم أية سلطة مطلقة تحاول ارغامه على مالا يرضى .

نشبت الثورة بسرعة لأسباب وعوامل لم تتضح تماما . ولا ريب أن تطرف الملك أمان الله فى تطبيق برنامجه الاصلاحى كان عاملا هاما فى نشوبها بين القبائل الاقطاعية القوية التى أدركت خطر السياسة الجديدة على نفوذها واستقلالها المحلى ، ولكنه لم يكن كل شىء ، فقد نشبت الثورة بادىء بدىء فى الولايات الشرقية المجاورة للسند ، ولاسيما منطقة جلال أباد ، وهى منطقة يسود فيها النفوذ البريطانى ، ثم امتدت بسرعة مدهشة برغم ما بذله أمان الله لحصرها واخمادها . وقد كانت السياسة البريطانية تأخذ دائما على أمان الله تأثره بنفوذ السوفييت ومحالفته إياهم ، وترى فى زيارته لموسكو وتقوية صلاته بالسوفييت تحديا لا تحمد عواقبه . وللسياسة البريطانية دائما أثرها فى تطورات أفغانستان الحاسمة ، والمرجح انها لم تكن بعيدة عن ذلك الانفجار الذى فوجىء به أمان الله ، وكان خطراً على عرشه وشخصه . وقد استطاع أمان الله أن يهزم الثوار بادىء بدء ، واعتقد مدى لحظة أنه سيد الموقف ، ولكن الحوادث تفاقمت بسرعة وامتدت الثورة إلى الجيش ، وزحف الثوار على العاصمة الأفغانية ، فبعث الملك بزوجه وأسرته إلى قندهار ، وفر الأجانب من كابول على متن طيارات بريطانية أرسلت من الهند ، وحاول أمان الله عبثا أن يهدىء الثورة بالغاء القوانين الجديدة التى أصدرها ، فلما رأى أنه فقد كل أمل فى الاحتفاظ بعرشه وسلطانه ، نزل عن العرش لأخيه الأكبر عناية الله ، وفر إلى قندهار لاحقا بزوجه ، ولكن الملك الجديد ألفى نفسه فى مأزق صعب ، ولم يجرؤ على مواجهة الحوادث ، فغادر بدوره ذلك العرش الخطر وفر ناجيا بنفسه ، ودخل الزعيم الثائر باشه السقا كابول ظافراً ، وتربع على العرش باسم حبيب الله . (أوائل سنة ١٩٢٩)